

طرابلس العروس التي فضح "كورونا" غربتها وعمق عزلتها... جدّدت انتفاضتها

صبحية نجار

ليل 27 نيسان (أبريل) 2020، خرق الطرابلسيون قرار التعبئة العامة الذي فرضته الحكومة اللبنانية جراء تفشي فيروس كورونا المستجدّ، وخرقوا معه عزلة ثاني أكبر مدينة في لبنان، فنزلوا الى الشارع للتعبير عن غضبهم وفقرهم وجوعهم ضد الارتفاع الجنوني للدولار غير أبهين بالبواب ولا بالموت. فما يعيشونه من مرارة وظلم وفقر، أشدّ وقعاً من الموت نفسه. عبّروا عن غضب عمره عشرات السنين ورثوه جيل إلى جيل حتى نفذ صبرهم وجفّت ألسنتهم من المطالبات ومرارة الذلّ المجبول بالعلقم. ولم يكن من الممكن أن يستجيبوا لتurf الحجر المنزلي الذي التزم به أبناء الطبقات الفقيرة والوسطى والأغنياء بطبيعة الحال، فغالبية أهالي طرابلس ممن يعيشون تحت خط الفقر، وإن لم يخرجوا يومياً إلى العمل ينقطع رزقهم وقوتهم الذي بالكاد يستطيعون تحصيله.

الشارع هو ملاذهم الأول والأخير، خصوصاً في حالات التشرّد عندما يطردهم مالكي أشباه البيوت التي يعيشون فيها، وأرباب العمل وعندما تضيق بهم الحياة. كسروا واجهات المصارف التي تحتجز ما تبقى من أموالهم أو رواتبهم، وتواجهوا مع الجيش اللبناني في معارك حقيقية كان آخرها تلك التي أسفرت عن مقتل الشاب فواز السمان الذي قتل برصاصة أطلقها الجيش عشوائياً أثناء محاولة فض الاحتجاجات (كما أكدت أخته فاطمة)، إضافة إلى وقوع عشرات الإصابات من المدنيين والجيش.

لماذا نزل الناس مجدداً الى الشارع تحديداً في طرابلس دون المدن الأخرى؟

"نزلنا الى ساحة النور ضد الفقر والجوع والذلّ"، هذا ما قاله أحمد، الشاب الأربعيني الذي أتى من حي الرفاعية أحد الأحياء الفقيرة وما أكثرها في طرابلس (التبانة، القبة، باب الرمل، قبر الزيني، حي التتك، المينا، المساكن الشعبية، الدفتار، الحارة البرانية، السويقية، التربيعة وغيرها). وصف أحمد مكان اقامته بالـ "حي ذي الطابع التراثي"، ساخراً ومبرّراً ابتساماً صفراء، "لأنه يقع تحت قلعة طرابلس مباشرة وتظهر عليه كافة بوادر اليأس والحرمان". ويُعدّ الحي واحداً من الأحياء الطرابلسية الكثيرة الذي يستغلّه السياسيون ليعلقوا على جدرانهم ومبانيهم صور عملاقة لـ "زعماء" المدينة الذين لم ينصفوها يوماً.

وصل أحمد الى ساحة النور (ساحة الانتفاضة) في ليل ٢٧ نيسان، وصلها بعد أن كان قد خسر مصدر رزقه كمياوم في محل نجارة أوقفه عن العمل قبل أزمة كورونا بعدما استبدله صاحب الورشة بشاب عشريني يتقاضى نصف اليومية. وعبّر عن حجم معاناته قائلاً، "مع قرار حجر الصحي اختنقت في منزلي المعتم الأشبه بالسجن".

أخذنا أحمد في جولة في حي الرفاعية، حيث شهدنا على درجة الظلم التي يعيشها سكان الذين لا يتمتعون بالحدّ الأدنى من الحقوق التي نصت عليها شرعة حقوق الانسان، وهي العيش بكرامة والحق في السكن الآمن والمأكل والمشرب وحرية التنقل والتحرك. كان المشهد كئيب حيث لا بيوت، بل زنانات رطبة متلاصقة لا تدخلها الشمس، ينام نزلها بأمعاء خاوية. وقد وصل الكورونا ليزيد الفقر بؤساً، فقد فُرض الحجر الصحي على الفقراء والأغنياء سواسية.

"حجر عن حجر بيفرق"، قال أحمد متسائلاً، "هل تعرفون ماذا يعني الحجر بالنسبة لهذه الأحياء الفقيرة؟" حال أحمد كحال معظم العائلات في طرابلس التي تعيش في فقر مزمن، والتي يزيد عددها يوماً بعد يوم، وقد تصل إلى مئة في المئة في الأحياء العشوائية المهتمشة. أحمد هو أب لخمس أطفال يعيشون جميعاً في منزل لا تتعدى مساحته المئة متر مربع، وينشأكون المطبخ والحمام مع جيرانهم.

أحمد اليوم عاطل من العمل، وفسحته الوحيدة في الأيام العادية هي الشارع أو الساحات العامة للهروب من قوقعة المنزل، مثله مثل آلاف الشباب في طرابلس الذين يُطلق عليهم لقب "أولاد الشارع"، ومعهم مئات العائلات التي وجدت في انتفاضة ٢٧ نيسان الماضي خلاصاً لتصرخ لا في وجه الفقر، والجوع، والحرمان.

فواز السمان شرارة الموجة الثانية من الانتفاضة

وقد أشعل مقتل فواز السمان شرارة الموجة الثانية من انتفاضة طرابلس أو "انتفاضة 27 نيسان"، وهو الشاب الذي تمثل حياته مرآة لغالبية الشباب الطرابلسيين الذين ظلمتهم الحياة وعاشوا في فقر مدقع ولم تتوفر لهم الحماية من العنف والتشرد، ولم تؤمن لهم فرص فرص تعليم ولا عمل، ولم يتم منحهم مجال للتعبير عن رأيهم. وقد أُجبروا على تحمّل المسؤوليات منذ نعومة أظافرهم، فحرموا من طفولتهم ومراهقتهم والآن من شبابهم. وكان للحجر الصحي أثر مباشر على عمل فواز الذي كان يصلح الدراجات النارية وصار بلا عمل مع قرار التعبئة العامة، فتضاعف غضبه الذي تراكم عبر سنوات حياته الـ 26، وقرر تفريغه مقهوراً ليلة 27 نيسان، فرحل عن هذه الحياة مظلوماً.

يتحمّل النظام السياسي مسؤولية هذا الظلم المتكرّر، ولم يرفضه سياسيو المدينة ولا النافذون فيها ولا كبار أغنيائها الكثر. أثار مقتل فواز غضب الكثيرين في المدينة وخارجها. صلي على جثمانه في الساحة نفسها التي شهدت سقوطه، حيث ندد الحضور بدخول الجيش أو إقحامه في مواجهة مماثلة مع المتظاهرين، وتبادلوا صورة فواز "شهيد ثورة الجوع"، مع العلم أن فواز لم يكن الشهيد الوحيد الذي سقط في طرابلس منذ بدء انتفاضة ١٧ تشرين 2019.

بعد هذه الحادثة انقسم الطرابلسيون بين مؤيد ومعارض لأعمال العنف.

التوقيفات

لم يمرّ ليل ٢٧ نيسان من دون توقيف شباب ثائرين عبّروا عن غضبهم وحرقة قلبهم بالحرق والتكسير. وأفاد محمد شوك أبو محمود، مؤسس مجموعة "حراس المدينة"، أنّ عشرات الموقوفين لا يزالون قيد التحقيق اليوم. وقد بدأت المجموعة نشاطها عام ٢٠١٥ في عز أزمة النفايات واستمرت حتى انتفاضة "17 تشرين"، ولا تزال حتى الساعة تكمل عملها الاجتماعي مع الثوار في الأحياء الفقيرة في ظل موجة الجوع التي تضاعفت مع وباء كورونا.

وأخبرنا سامر (اسم مستعار لشاب موقوف لم يرد ذكر اسمه) وعمره ٢٧ سنة وأب لثلاثة أطفال، أنه اعترف خلال التحقيق برمي مادة التتر وحرق سيارة تابعة لشرطة الاستقصاء. وذكر أيضاً أنه اشترى المادة عندما ضاقت به الدنيا، ولم يعد يملك ليرة واحدة، فقرّر أن يحرق نفسه أمام الملأ. ولكن عندما نزل الناس للتعبير عن وجعهم، قرر أن يصب غضبه ويحرق كل من يواجهه أهل مدينته.

منذ بدء انتفاضة ١٧ تشرين، ظهرت طرابلس بأجمل حلة، إذ نزلت أكثرية عائلات المدينة إلى ساحة النور لتقول لا للسلطة السياسية، ولكن من هم الذين عادوا إلى الشارع في ليل ٢٧ نيسان؟ وقد طُرحت أسئلة كثيرة حول هوية المتظاهرين في احتجاجات 27-28 نيسان في ظل التعبئة العامة.

إذا أخذنا المشهد كما هو على الأرض، لم تلتفت السلطة فعلياً إلى مطالب الناس، ولم تفرّق بين حجر العائلات القادرة والأخرى الفقيرة، ولم تؤمن ما يلزم لـ "حماية" الناس كما ادّعت من أجل الوفاية من الوباء. زد على ذلك أنّ المساعدات الغذائية والمالية التي بدأت الحكومة بتوزيعها متأخرة، لم تكن كافية أصلاً.

وقد أربك العنف الذي مورس في الشارع زعماء المدينة، وراحت تنهال الاتهامات على الثوار ووصفهم بالـ "مندسين" والـ "غرباء"، في حين أنّ جلّ ما يتسلحون به هو وجعهم النابع من الجوع والفقر.

حشدت المعركة الدائرة ليل 27 نيسان نسبة مشاهدات عالية على شاشات التلفزيون، ولم يُعجب المشاهد كثيرين ممن كانوا ينزلون إلى ساحة النور من قبل لحضور مهرجان غنائي أكثر مما هو انتفاضة وجع. وفجأة عندما تعرض الثوار لأصحاب رأس المال، وُصموا بالـ "زعران"، ولكن وحدهم الثوار "أولاد الشوارع" يعرفون وجهة بوصلة طريق الوجع.

وبعد أن كان قد أُطلق على طرابلس لقب عروسة الثورة مع انتفاضة "17 تشرين"، وجدت نفسها وحيدة من دون عرس ولا حتى عريس. وقد شهدت ساحة النور التي شارك فيها غالبية الثوار، 21 جولة عنف بين المتظاهرين والجيش، وواجهها أهالي طرابلس وحدهم من دون أي تضامن لا من المناطق المجاورة ولا البعيدة، وكأنه في وقت الشدة تُترك طرابلس وحيدة، من دون "مصفيين ولا راقصين".

زعل ثوار طرابلس الذين لم يتركوا الساحات أبداً، كان على ثوار بيروت وعتبهم الأكبر على المناطق الريفية المجاورة من الجرد الماروني بين زغرنا وبشري، هذا الجرد الذي لطالما كانت طرابلس رنته وشبائه إلى عالم التعليم العالي والعمل والميادين الثقافية والترفيهية. حتى في انتفاضة "17 تشرين"، لم يكن لأهالي الجرد الجرأة الكافية لينتفضوا في وجه البيك والزعيم وابن الطائفة على أرضهم، ومع ذلك كانت ساحة النور حزنهم الدافئ الذي ضمّهم إلى الانتفاضة. أما في جولات العنف، فتترك طرابلس وحيدة كالعادة والتضامن مع العروس الفقيرة يقتصر على مواقع التواصل الاجتماعي أو عبر متابعة الشاشات.

وتحدثنا مع حسام بربارة، شاب عشريني ترعرع في طرابلس ولمّ بخفايا المدينة، ولم يترك الساحة منذ 17 تشرين. وأفاد حسام، "أنا من اللطوق جرود كسروان، ولكنني أنتمي إلى طرابلس ثقافياً وعقلياً وعملياً. نحن ظلمنا وواجهنا الانتفاضة وحدنا في عز الشدة". وأضاف متسائلاً، "لمّ الاعتماد كله على طرابلس؟ حتى في جولات العنف أمام المجلس النيابي في بيروت كان ابن طرابلس في الصفوف الامامية يدافع عن من حوله ولا يترك ساحة المعركة حتى الرمق الأخير".

خلفية عن المدينة

مدينة طرابلس هي ثاني أكبر مدينة في لبنان وتضم ثلاث بلديات: طرابلس، والمينا، والبدواي. وفي نهاية الحرب الأهلية، باتت أغلبية أهلها (90%) من الطائفة المسلمة السنية، وتمركزوا بين طرابلس والبدواي، أما المسيحيون الأرثوذكس فمعظمهم في الميناء والأقلية العلوية في جبل محسن.

ما يميّز طرابلس عن غيرها من المدن هو موقعها الجغرافي، الذي جعل منها مركزاً تجارياً لمنطقة محاطة بمجموعة مناطق ريفية كبيرة، وهي مركز أساسي لهذا الريف المجاور الذي يضمّ زغرنا وبشري وسير الضنية وقضاء عكار.

قبل الأزمة الاقتصادية التي ضربت لبنان، كان 57% من أسر المدينة يعانون من الحرمان الشديد، في حين لا يملك 81% من اللبنانيين المقيمين في حي باب التبانة ضمان اجتماعي أو تأمين صحي. وتبلغ نسبة البطالة في الأحياء الشعبية 55%، علماً أنّ معدلات الفقر أصلاً مرتفعة في محافظة شمال لبنان (بحسب دراسة لـ UN-Habitat حول أحياء باب التبانة والقبّة وجبل محسن).

مقابل هذا الفقر المدقع هناك ثراء فاحش، إذ تضمّ قائمة مجلة "فوربس" الأميركية لأثرياء العالم لعام 2018، أسماء 7 مليارديرات لبنانيين يبلغ إجمالي ثروتهم 13.4 مليار دولار، يتصدرهم الأخوين طه ونجيب ميقاتي، أبناء طرابلس بثروة 2.8 مليار للأول و2.7 مليار للثاني الذي كان رئيس الحكومة الأسبق.

ولهذا يسأل الطرابلسيون عن سبب غياب رجالات السياسة وزعماء المدينة. وقد علّق أبو محمود من "حراس المدينة" على هذا الموضوع قائلاً، "لا نتوقع أي شيء منهم، هم مستسلمون في نوم عميق، مع كل ما حصل ليل 27 نيسان، لم يحركوا ساكناً، وجلّ ما أنجزوه منذ بدء أزمة الكورونا هو أنّهم اجتمعوا في فندق الـ Quality INN الشهير، وضعوا كماداتهم، وتصوروا أمام الكاميرات، وطلبوا من الدولة "أخذ الإجراءات اللازمة للحد من

الوباء". وأضاف، "يغضّ زعماء ونواب طرابلس النظر عن معالم الحرمان، ويتجاهلون تقارير الأمم المتحدة الإنمائية التي تصف مدينتهم بالمدينة الأفقر على ساحل المتوسط حيث أرقام البطالة المرتفعة. ولم يكلفوا أنفسهم حتى بإعداد خطة طوارئ ومساعدة الفقراء من ثرواتهم المهولة، كما يفعلون قبيل "موسم" الانتخابات النيابية الطائفية".

"الفقر في طرابلس هو خدمة لزعماء المدينة الذين يتحكمون بزمام الأمور"، بحسب تحليل رولا التي وصلت الى ساحة النور حاملة صورة فواز السمان. وأضافت بلهجتها الطرابلسية، "لا يمكن لأحد أن يرى الوجه الحقيقي للفقر في طرابلس من دون زيارة حي التنك، أو حي المنكوبين، أو منطقة جبل محسن والتبانة. الصحافيون يغطون الثورة من الجهة البرجوازية من الساحة، ولكن أهل الساحة يعيشون في هذه المناطق ومن أجلها نزلوا".

أما عمر الذي يقف على بعد أمتار من الساحة نفسها، فقال، "نحن أهل طرابلس ضحية السياسة والدين، بدءًا من أحداث جبل محسن -التبانة التي لم نجني منها سوى خسارة بعضنا البعض وموتى وجرحى، وصولًا إلى الأزمة السورية التي دفعنا نحن ثمنها". وأضاف، "أنا حلاق رجالي كنت أتقاضى أجرًا يوميًا يبلغ ٣٠ ألف ليرة، ولكن خسرت عملي لأن "المعلم" استبدلني بلاجئ سوري يدفع له نصف يوميتي ويعمل طيلة أيام الأسبوع من دون عطل، وهذه حال أكثرية الشباب في طرابلس". وأردف، "نحن لا نريد قطع أرزاق اللاجئين، بل نريد الحق بالعمل وأن يحاسب المخالفون وأن تحمينا الدولة من التهديد بلقمة العيش".

من جهتها، قالت ميرا منقارة، مرشدة سياحية من طرابلس ومتخصصة بتنظيم جولات سياحية على أهم المعالم التاريخية والثقافية، إنَّها من أشد المتفائلين تجاه اقتصاد المدينة، لكنها خسرت عملها مع بدء الأزمة الاقتصادية التي ضربت البلاد. وأفادت أنَّ طرابلس من أغنى المدن في المنطقة وهي كانت مرشحة لتحل مكانًا هامًا على لائحة مواقع التراث العالمي (اليونيسكو) بفضل وجود معرض رشيد كرامي الدولي فيها. وكان قد بدأ العمل بهذا المعرض في ستينات القرن الماضي في عهد رئيس الجمهورية الراحل فؤاد شهاب الذي أراد للبنان معرضًا دوليًا دائمًا على غرار المعارض العالمية، وكان سيخلق سيخلق حوالي خمسة آلاف فرصة عمل في المدينة لولا التدخلات السياسية التي شلت الحركة فيه ويتمته.

في عهد فؤاد شهاب، عاشت طرابلس عصرها الذهبي، إن كان من ناحية علاقتها مع المناطق الريفية المجاورة أو حتى مع العاصمة بيروت التي كانت ترتبط بها عبر خط سكك حديدية، هذا عدا عن وجود المرفأ البحري الذي كان ناشطًا، بالإضافة إلى مشاريع لتشغيل مطار القليعات المجاور. كل هذه المشاريع تبخرت مع بدء الحرب الأهلية اللبنانية.